بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين

مقدمة

من مفاهيم ديمقراطية الإسلام وأبعادها

يقول علماء السياسة أن نشأة الدولة أساسا أتى من شعور الإنسان بالخطر الذي يتهدده مما حتم عليه نوعا من التعاون الإنساني ضمن الجماعة، ثم أدرك أن هذه الجماعة لابد وأن يكون لها نظام معيّن، هذا النظام له قدر معيّن من السلطة.. وعليه نشأت الدولة البدائية، ثم تطور مفهوم الدولة على مر العصور حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من تطور في العصر الحديث. إلا أن نشأة الدولة الإسلامية تختلف أو تكاد تخالف هذا التفسير كليا، مرد ذلك أن الدولة الإسلامية إنما نشأت لتقيم أمر الله على هذه الأرض التي استخلف الإنسان فيها، ولقد بيّن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وفي عدة مواضع أن الإسلام جاء ليقيم في الدنيا دولة تقيم المآثر والمكارم التي يحب الله أن تتحلى بها الحياة البشرية وتستأصل من الأرض كل ما يبغض الله من شرور.

والدولة الإسلامية وإن اختلفت في دوافع قيامها عن أية دولة أخرى قديما أو حديثا فهي لا تخرج عن الإطار أو التعريف الذي أجمع عليه العديد من أساتذة وعلماء السياسة في العصر الحديث من حيث أنها تعني:" جماعة المواطنين الذين يقيمون على إقليم معين ومحدد ومستقل عن أية سلطة خارجية ويقوم على هذا الإقليم نظام سياسي له حق الطاعة والولاء من قبل هؤلاء المواطنين." والدولة الإسلامية عندما نشأت كانت قد توفرت لها الأركان الأربعة هذه أي الشعب والإقليم والسلطة والنظام السياسي. ذلك أن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم عندما بعث برسالة الإسلام الخالدة أمضى فترة طويلة في مكة وقبل هجرته للمدينة المنورة وهو يعد الفرد المسلم (الشعب) ويخطط لقيام الدولة الإسلامية ويعرض دعوته على وفود قبائل العرب عند حجهم للبيت بعدما لقي الصدود من قريش..

وهذه خطوة نستطيع القول إنها بحث عن الركن الثاني والأساسي لوجود الدولة وهو (الإقليم) الذي يستطيع المسلمون أن يؤدوا فيه شعائرهم الدينية بدون أية ضغوط ولكي يشرعوا في إقليمهم بما أمر الله وعليه فعندما كان حج عام 620 م حدث أن وجد بين الحجيج حجاج من يثرب الذين وجدوا في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وفي دعوته ما يستطيعون به أن يتغلبوا على الفرقة التي تعم مدينتهم (يثرب) وهنا كان بزوغ فجر الدولة الإسلامية.

بعد ذلك وعلى أثر بيعة العقبة الثانية التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم والأنصار من الأوس والخزرج والتي من شروطها ذكر الحرب ونصرتهم الرسول على أعدائه مهما يكن من الأمر. وبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه إلى يثرب " المدينة المنورة" نواة الدولة الإسلامية، أصبح هناك ركنان من أركان الدولة الإسلامية وهما " الشعب" " والمكون من صحابته الكرام و"الإقليم" وهو المدينة المنورة.

وقد تم في هذه الدولة أروع ما شهدته البشرية من عملية انصهار اجتماعي على يد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم حين آخى بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين. ثم توفر لهذه الدولة الركن الثالث وهو السلطة والاستقلال، سلطة الرسول صلوات الله وسلامه عليه. وأصبح لهذه الدولة نظامها السياسي المستمد من تعاليم الإسلام الشمولية، وأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم قيام هذه الدولة في كتاب كتبه بين المهاجرين والأنصار، الكتاب الذي أصبح دستورا للدولة الإسلامية الزكية التي قامت ولا تزال على مبادئ الوحدانية والوحدة والمساواة والعدالة والحرية والشورى.

كثيرا ما يردد المستشرقون الغربيون وطلبتهم من أبناء المسلمين أن الإسلام دين يحدد علاقة الفرد بربّه وما يزاوله الإنسان من أشكال العبادات والطقوس الدينية التي يمارسها الإنسان اعترافا بوجود الله وخضوعه له، وفاتهم أن العبادة في الإسلام لا تقتصر على إقامة المسلم لقواعد الإسلام الخمس فقط وإنما يتعداه إلى كل عمل يعمله المسلم ابتغاء مرضاة الله فالعدل بين الناس عبادة ونفع خلق الله عبادة والإحسان عبادة وأداء المسؤولية والأمانة إلى أهلها عبادة والمساواة بين الناس عبادة وتربية الجيل الصاعد وفق ما يرضي الله والرسول عبادة وإماطة الأذى عن الطريق عبادة وإفشاء السلام عبادة وإدخال السرور عبادة.. وكل عمل يؤديه المسلم يريد به وجه الله تعالى عبادة حتى اللقمة يضعها في فم امرأته كما جاء في الحديث النبوي الشريف. وعليه، فالإسلام عكس ما يظنون: دين كلي شمولي لم يترك صغيرة أو كبيرة من شؤون الدين أو الدنيا إلا وحدد للمسلم كيفية التعامل معها والتصرف حيالها، ذلك أن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منذ خلقت الدنيا ارتضاه الله للبشرية دينا ودستورا لحياتهم بأكملها.

وعلى غرار الأنظمة السياسية المعاصرة الديمقراطية التقليدية منها والتي تشمل نظام الحكومة الجمعية والنظام الرئاسي والنظام البرلماني أو الأنظمة الشمولية التي تشمل الديكتاتوريات الفردية أو الديكتاتوريات الطبقية القائمة على الماركسية أو الأنظمة الخليطة من هذين النوعين التي تعرفها بلدان العالم الثالث، يتميز النظام السياسي في الإسلام بتحقيقه المساواة للمواطنين في الحقوق والواجبات والرقابة على أجهزة الإدارة ولكنه ليس كالديمقراطية بمعناها المعروف لدى الغرب والتي تعني أن ممثلي الشعب أحرار في التشريع والتقنين ولهم السيادة المطلقة لأن التشريع لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وليس للبشر أن يشرعوا وفق أهوائهم ورغباتهم.

والإسلام أيضا اشتراكي في اتجاهاته ودعوته إلى العدالة الاجتماعية وإيجاده نظاما يسمح بفرص متكافئة للمواطنين، ألا ترى أنه يمنع الاحتكار والاستغلال ويحرم التبذير وسوء التسيير، ولكنه ليس كالاشتراكية بمعناها المعروف كمصطلح يقصد به النظرة الخاصة للحياة والكون بنظرة مادية ملحدة.

إن ديمقراطية الإسلام تحددها العديد من الآيات والأحاديث وأقوال الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم قال تعالى " **وشاورهم في الأمر** "(آل عمران/159) وقال أيضا: "**وأمرهم شورى بينهم**" (الشورى/28). يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم حتى وسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يتولاه. وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكا في أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه.. أما شكل الشورى والوسيلة التي تتحقق بها فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى لا مظهرها فهي من الإسلام.

والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة ولا نصوصا حرفية إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة. والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء. فهذه العقيدة في أصولها الاعتقادية البحتة وقبل أي التفات إلى الأنظمة فيها، تحوي حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شيء له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشري يهيئ لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ثم تجيء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها.

إن الحكم في الإسلام عدل ومساواة وأمانة، والأمير في الدولة الإسلامية كأحد الرعية لا يمتاز عنها بشيء، ليس معصوما كما يدعي الغلاة في الدين، يصيب ويخطئ، يتعب ويستريح. يقول عن هذه العلاقة سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه:" إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله." والأمير الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحث على الشورى فيقول:" لا خير في أمر أبرم من غير مشورة." وسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه ينهى عن كل استبداد بقوله:" نعم المؤازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقد خاطر من استغنى برأيه." وتضاف إلى هذه الأقوال الشهيرة، العديد من مأثورات الخلفاء الراشدين وأئمة الدولة الإسلامية في مختلف عصورها الذهبية..

وأما اشتراكية الإسلام فتحددها أيضا العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال أئمة السلف الصالح رضوان الله عليهم.. فمنها قوله صلى الله عليه وسلم " **المسلمون سواسية كأسنان المشط** " و" **الناس شركاء في ثلاث الماء والنار والكلأ** " وقوله عليه الصلاة والسلام:" **المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له باقي الجسد بالسهر والحمى.**"

فديمقراطية الإسلام إذًا تختلف كل الاختلاف عما أتربه الغرب والشرق من نظم حديثة.. ولكن متى يعي المسلمون هذه الحقيقة؟؟ أم كيف يتذوقونها وهم ينصتون بقلوبهم إلى أعدائهم ويحكمون في دنياهم فتاويهم بلا إشكال أو جدال التي تقتضي أن يتفرقوا إذا اجتمعوا ويظنون أنهم رواد حضارة ودعاة سلم بين الناس.. فهم دعاة " الإسلام الجديد " الذي اصطنعه الغرب لباسا لهم فارتدوه سكارى غافلين وحيارى تائهين، الدّين الذي ينبذ الجهاد نبذا ويرى فيه تأخرا، الدّين الذي يتكامل مع اللائكية في إيجاد الحلول للبشر... شأنهم شأن الذي يستوي عنده الأحياء والأموات والنور والظلمات والظل والحرور ولا حول ولا قوة إلا بالله. فلو ذاق هؤلاء وحكامهم طعم الإيمان الصحيح وحلاوة الأخوة بينهم ونشوة القرب من حضرة الله تعالى لما اجتمعوا ليتفرقوا ولأخذتهم الحمية الحميدة عندما ينظرون إلى أعدائهم عامة كيف يتحدون وعلى الخصوص إلى أوروبا كيف تشتت من قبل وكيف تسعى الآن لتجمع شملها من جديد.

ومتى وُجد المسلمون حقا ووُجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته نشأ النظام الإسلامي نشأة ذاتية وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها وتحقق المبادئ الإسلامية الكلية خير تحقيق..